صلح الرملـــة

عانى صلاح الدين الأيوبي الماً نفسياً طاغيـــاً لسقوط عكا في ايدي الفرنجة ، ولكن الله لم يبعثه على اليأس والقنوط ، بـــل حفزه على مواصلة جهاده كأعظم ما يكون الجهاد . فلبث ينتظر ما يكون من امر خصومه ، واذا بأنباء تحمل اليه ان غي وكونرد قد اشتجر الخلاف بينهما على الملك ، وقد انحاز كود الى فيليب ، وغي الى رتشارد فتنازع الملكان اللذان كانا يتنافسان أيضاً عـلى الرياسة ، بما حمل فيليب اوغوست على مغادرة البـــلاد المقدسة تاركاً جيشه تحت قيادة كونرد . ثم علم ان الملك ريتشارد قد سار بجيشه الى عسقلان ، فأمر السلطان باخلاء المدن الواقعة في طريقه ، وهي حيفا وقيسارية وارصوف ويافا ، وتخريبها ، كي لا يجد فيهـا الفرنجة ملجأ يلجأون اليه ، ولكن ما لبث الفريقان ان التحما امام أرصوف ، وكانت الموقعة التي دارت فيها شديدة على الجيش العربي فمزقته وبددت شمله ، غير ان صلاح الدين استطاع ان يجمع فلوله وان يلاحق الفرنجة بغية الاشتباك معهم ثانية ، فتجنبوا هـــذا الاشتبـــاك رغم النصر الذي احرزوه ، وواصلوا سيرهم الى يافا ، فتركهم واتجه الى الرملة لحماية طريق القدس .

يقول احد الكتاب الغربيين ان صلاح الدين قد ادرك ان اتباعه بسلاحهم الخفيف ، اضعف من ان يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد في ملحمة او معركة كبرى ، فانتقل إلى ما نسميه اليوم حرب العصابات او حرب الأنصار ، واخذ الجيش العربي ينقض على اعدائه في مناوشات خفيفة يرغمهم على منازلته فيها ارغاماً ويتغلب عليهم فيها بمهارته وشجاعته وكثرة عديده . « ولما نقص جيش العدو المهاجم ، زاد السلطان من مدى خططه في هذه الحرب الخفيفة ، وجعلها أشد جرأة ، فأحاطت بعسكر الفرنجة ، وكادت تحاصره جموع من الفرسان اقبلت كالسراب الزئابير ، يسيرٌ سحقها اذا وقعت في قبضة اليد ، ولكن لها اجنحة تمكنها من الافلات من أشد القوى بأساً . كما ان لها أشواكاً تنفث منها السوء والأذى . ولم تنقطع بين طلائع الفرنجة وفرسان حروب الخيل ، حروب هلكت فيها ارواح كثيرة قيمة دون طائل أو جدوى . وكثيراً ماحيل بين الرسل ومواصلة المسير ، وتقطعت سبل المواصلات ، وكان على الفرنجة ان يشتروا أود الحياة ببذل الحياة ، وإن ارادوا ماء من عين أراقوا لذلك الدماء » حتى أصبح شغلهم الشاغل حماية أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئة على طلائعهم او رسلهم او كتائبهم الصغيرة او اطراف معسكرهم نفسه . حتى اصبحوا اذا نعموا بفترة قصيرة من السلام « لم يشتغلوا بتقوية صفوفهم ، او باحياء ما خمد من روح البسالة والاقدام ، او بتغذية روح الظفر في النفوس ، أو بالتأهب للزحف على المدينة المقدسة ، وهي مقصد حملتهم ، زحفاً حازماً لا ونية فيه ، وانما اشتغلوا بتأمين المعسكر ، الذي باتت تشغله

جماعات هزيلة من العرب، بحفر الخنادق واقامة وغيرها من وسائل التحصين ، كأنهم يتأهبون ، اذا ما عاد القتال ، لرد عدوّ قوي معتد ، ولا يعدون العـــدة لأن يقفوا موقف الغزاة المغيرين المفاخرين » .

ويقول الدكتور مصطفى الوكيل «ان الذي اقعد رتشارد عن الرحيل الى القدس هو سير مفاوضات الصلح بينه وبين العرب حوالي آخر شهر رمضان سنة ٥٨٧ (منتصف تشرين الاول سنة ١١٩١) .وما كان لملك الانكليز ان يرغب في الصلح الا لأنه رأى صعوبة التقدم الى بيت المقدس ، ولأنه رغب في العودة إلى بلاده ، ولأن ما عاناه من الصعوبات في مسيره من عكا إلى يافا ، وانقسام الافرنج الذين معه ، وطول الوقت الذي قضاه قومه على عكا – قد دعتـه كلها إلى طلب الصلح ورغبته فيه ، فدارت المخابرات بينه وبين الملك العادل ، وكان من شروطها ان يتزوج الملك العادل اخت رتشارد ارملة ملك صقلية ، وان يتنازل السلطان صلاح الدين لأخيه العادل عن البلاد التي احتلها بالشاطىء ، كما يتنازل ملك الانكليز عن البلاد التي دخلها كصداق لاخته ، وان تكون القدس ملكاً للزوج والزوجة بصفتهما محايدين ، يفتحان ابوابها للعرب والفرنجة على السواء ، وان يتبادل الفريقان الاسرى ، وان تعاد خشبـــة الصليب المقدس الى الافرنج . وقد عرضت هذه الشروط عـــلى السلطان صلاح الدين فوافق عليها رغبة منه في حقن الدماء واعادة السلام ، غير ان رجال الدين من الفرنجة غضبوا غضباً شـديداً ، وقالوا كيف تتزوج اميرة مسيحية بامير مسلم ، وما زالوا بها حتى

رفضت هذا الزواج ، وهددوا رتشارد بالطرد من الكنيسة فارسل الى العادل برفض هذه الشروط » .

ويقول الدكتور فيليب حتي ان الملك رتشارد هو الذي اقترح هذا الزواج ووضع له تلك الشروط معلقاً عليه كبار الامال . ويؤكد ابن شداد ان صلاح الدين قد وافق عليه ورضي بتلك الشروط وان كان قد شك منذ البداية في امكان تحقيقها . ويعلق سيد امير علي على هذا المشروع بقوله : « لو سمح الكهنة ورجال الدين بهذا الزواج ، لكان بلا نزاع القنطرة التي سار عليها السلام بين المسلمين والمسيحيين الى اليوم » .

والمؤرخون من عرب وغربيين متفقون على ان كلا من رتشارد وصلاح الدين كان معجباً ببطولة الاخر ، وكثيراً ما كانا يتبادلان الهدايا ، وعلى ان السلطان لما علم بمرض خصمه ارسل اليه طبيبه الخاص فعالجه وشفاه ، وكان ما يفتأ يسأل عنه ليطمئن على صحته ، أما ما روته الاساطير عن مقابلاتهما ومبارزاتهما الفردية فلا صحة له. والواقع ان رتشارد قد رغب في الاجتماع بصلاح الدين فأبى هذا تحقيق رغبته على كره منه لان الملوك في رأيه اذا اجتمعوا لم يصح ان يتقاتلوا بعد ذلك . ولكن رتشارد اجتمع مع العادل مرات ، فتمكنت الصداقة بينهما واعجب كل منهما بالاخر ، « وكانا اذا اجتمعا تجاذبا الحديث في سمر ودعابة وقد نسيا انهما في حرب ضروس » .

وفي خلال المفاوضات التي كانت تجري على الصلح بين الفريقين ، كان صلاح الدين يقدم على تضحية عظمى ، فيخرب ، والحزن يملأ

نفسه ، عسقلان والرملة واللدّ وكل ما يرى فيه قوة للفرنجة اذا استولوا عليه . وكان يقول وهو يرى تلك الحصون تتداعى تحت معاول جنوده : « والله لأن افقد اولادي باسرهم ، أحبّ اليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن اذا اراد الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين ، كان » .

ولما أقبل الشتاء رحل السلطان الى القدس ، وسمح لجنده بالذهاب الى منازلهم ، وابقى معه طائفة منهم اختارها لتعزيز وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة . وفي اوائل ذي الحجة (كانون الاول) سار رتشارد الى القدس فلم يجد في طريقه اليها مكاناً يستريح فيه ، ولم يترك له العرب الذين كانوا يهاجمونه في كل مكان سبيلا الى الراحة التي ينشدها ، حتى دب الملل الى قلوب جنوده وأضناهم التعب ، فسار بمن بقي معه منهم الى عسقلان واخذ يبنيها . فبلغه في غضون ذلك ان الثورات قد نشبت في بلاده ، وان اخاه يطمع في الاستيلاء على عرشه ، وعلم ان الفرنسيين والانكليز في عكا يتقاتلون فيما بينهم ، وان المركيز كونارد يفاوض السلطان ليعقد معه صلحاً منفرداً ، وان ملك القسطنطينية قد أرسل اليه الرسل ايضاً ليبرم معه معاهدة سلام وصداقة . فجمع قومه وطلب منهم ان يختاروا ملكاً غيره لانه لن يستطيع البقاء في الشرق طويلا ، فاختاروا كونرد ملكاً عليهم وأذعن رتشارد لما قرروا . ولكن لم تمض بضعة ايام حتى قُتل كونرد غيلة بيد أحد الحشاشين ، وانتخب هنري ابن اخت رتشارد خلفاً له . وقيل ان رتشارد نفسه هو الذي اغرى رئيس الطائفة الاسماعيلية في مصياف ، بقتل حليفه الخارج

عليه ، فارسل اليه اثنين من اتباعه فنزلا عليه ليلاً وقتلاه .

وقد حاول رتشارد بعد ذلك احتلال بيت المقدس ، ولكن محاولته هذه كانت تنقصها العزيمة والاقدام والرغبة الصادقة ، وكان قد فقد هذه الدوافع مذ علم باضطراب الاحوال في بلاده ورأى الخلاف يشتد بين جيوش الفرنجة ، فأخذ يؤخر الزحف الى القدس ويتباطأ فيه ويهول أمره على اصحابه يريد ان يصرفهم عنه ، لأنه لا يريد ان يغادرهم وهم يخوضون هذه المعركة الفاصلة من دونه ، ويخشى ان هم خاضوها وهو الى جانبهم ان تستغرق من الوقت مثل ما استغرقته معركة عكا ، حتى استطاع ان يثنيهم عن هذه المحاولة فارتدوا عن بيت المقدس وقد اصبحوا على مرمى السهم منها دون ان يخوضوا مع حاميتها اية معركة .

استبشر صلاح الدين بهذه البادرة ، واغتنم فرصة رجوع الفرنجة إلى عكا ، فاتجه هو بجنوده الى يافا واحتلها وحاصر قلعتها وكاد يستولي عليها ، واذا بالملك رتشارد يقبل عن طريق البحر وينقض في طليعة رجاله على جيش العرب ، فيشتبك معهم في معركة عنيفة . وقد قتل جواده في هذه المعركة ، فاخذ يقاتل راجلاً بفأسه الدنمركية التي اشتهر بها ، واذا بفارس عربي يخترق صفوف المحاربين وهو ممسك بزمام جواد أصيل ، ويتقدم من قلب الاسد قائلا له ان صلاح الدين قد ارسل اليه هذا الجواد لأنه يرى ببطل مثله ان يقاتل راجلاً .

وقد استمرت معركة يافا بضعة ايام انسحب العرب بعدها الى الرملة ، وانشأوا يستعدون لهجوم جديد ، ويحشدون لهذا الغرض جيشاً

لجباً اخذت سراياه تفد من جميع الانحـــاء . فلما علم رتشارد بالنبأ هاله كثيراً ، وأخذ يفاوض صلاح الدين من جديد ، وشروطـــه تهون يوماً بعد آخر مظهراً رغبـــة شديدة في حقن الدماء ونشر السلام ، ثم ارسل الى صديقه الملك العادل ليتوسط بينه وبـــين اخيه ، فانشأ العادل وامراء المسلمين يقنعون السلطان بعقد الصلح ، مؤكدين له رغبة الجنود في الراحة وحاجة البلاد الى السلام ، وما زالوا به حتى وقـــع مع الملك رتشارد في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ (٢ ايلول سنة ١١٩٢) الصلح المعروف بصلح الرمـــلة ، ومن شروطه ان تكون بلاد الشاطىء من صور الى عكا بيد الفرنجة ، وان تخرب عسقلان ، وان يسير العرب والفرنجة في املاك بعضها من غير ان يعتدى عليهم ، وان يزور حجاج الفرنجة القبر المقدس متى شاءوا . فغشي الناس من الفريقين فرح شديد ، وبادر رتشارد فسافر الى عكا ثم اقلع منها الى بلاده .

وكأن صلاح الدين الايوبي قد اطمأن الى هذه النتيجة الـــتي تحققت على يديه ، ورأى من خلال الغيب ان تلك البقعـة الضئيلة من الارض التي بقيت في ايدي الفرنجة ، لن تلبث حتى تعود إلى ايدي العرب المسيحيين واليهود والمسلمين من ابناء البلاد ، فمات بعد شهور معدودة في مدينة دمشق التي نشأ فيها واحبها كثيراً ، ووري في ثراها الحبيب في الرابع عشر من صفر سنة ٥٨٩ (٢٠ شباط سنة ١١٩٣) قرير العين مرتاح الضمير الى المهمة العظيمة التي حققها . وكان حينذاك في الخامسة والخمسين من عمره ، وله سبعة عشر ولداً اكبرهم نور الدين الذي لقب الملك الأفضل وحكم دمشق

والقدس وسورية الغربية ، وابو الفتح الغازي الذي لقب بالملك الظاهر وحكم حلب وسورية الشرقية ، وعماد الدين عثمان الذي لقب بالملك العزيز وتولى مصر . كما كانت له ابنة واحدة هي مؤنسة التي تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمود بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل . ولم يخلف صلاح الدين داراً ولا عقاراً ، وكل ما تركه من المال سبعة واربعون درهماً من الفضة ودينار واحد من الذهب .

وكان صلاح الدين مشرق الوجه حاد العينين مربوع القامة كثّ اللحية ، يلبس العمامة والجبة والقفطان ، ويتقلد في منطقته خنجراً مرصعاً . وكان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه إلا الخير ، وطاهر اللسان لا يشتم ولا يُعنّف قط ، وطاهر القلب لا يفكر إلا في مصلحة قومه وبلاده . وهو عظيم الفضيلة والمروءة والجود ، لا يتشاءم ولا يتطيّر ، ولا يفضّل يوماً على يوم ، عادل ناصر للضعيف ، يعمل برأي الجماعة ، ويكره الاستبداد والمستبدين . يجلس للمظالم بنفسه مرتين في كل اسبوع ، في حربه وسلمه وسفره وحضره على السواء ، فلا يعترض مجلسه حاجب او وزير ، ولا يستغيث به احد إلا أغاثه ، ولا يحابي في الحق وإن كان على اهله أو على نفسه . وقد اوصى ولده الملك الظاهر يوماً بقوله : «اوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك ، واحذّرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لا ينام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم فأنت اميني وامين الله عليهم ، واوصيك بحفظ قلوب الامراء وارباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولا تحقد على

احد فان الموت لا يبقي على احد ، واحذر مابينك وبين النـــاس فان الله لا يغفر إلا برضاهم ، أما ما بينك وبين الله فان الله يغفره بتوبتك اليه » .

وكان محباً للعلم والعلماء ، ميالا الى البناء والعمران ، لا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المدارس والمستشفيات ويبني الجسور ويتعهد الترع . وقيل ان ارزاق العلماء في سورية كانت تتجاوز على عهده مائتي الف دينار . وكان يحترم عقائد الناس ، ويوسع لهم في الحرية ما استطاع ، ويولي المسيحيين واليهود العرب المناصب التي يستحقونها . ويروي ابو شامة ان العادل ولى الانشاء ومـــا يتعلق بامور السر الصنيعة بن النحال وكان نصرانياً ثم أسلم ، فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فاق دين المسيح في دولة العادل ، حتى علا على الاديان
ذا اميرٌ ، وذا وزير وذا وال ، وذا مشرف على الديوان

ولقد وافق مؤرخو الفرنجة مؤرخي العرب على تعظيم شأنـــه وإكبار قدره ، وقالوا ان موته قد آلم الفرنجة بقدر ما آلم العرب . لما عرفوا فيه من البسالة والشهامة والعدل والصدق ، والحلم عنـد المقدرة ، والعفو بعد الانتصار ، والبر الشديد بالعهد والمواثيق .

ويلاحظ الاستـــاذ نقولا زيادة ان الصليبيين كانوا في السنين الاولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد الدين زنكي بأن جعلوه ابن الكونتس ايدا التي اشتركت في الحملة الاولى ، وفي زمن الحملة الثانية اعتقدوا ان فلج ارسلان من نسل جرمـاني شريف . ولكن بعد ان انتشرت شهرة صلاح الدين ظهرت خرافـــة تعلل

عظمة توماس بكت احد مشاهيرهم بجعله ابناً لام عربية .

وكان صلاح الدين الغاية في قوة الشخصية وقوة البأس واتقاد الذكاء وحسن القيادة ، مع وداعة وحلم ورقة قلب وسماحة نفس . يعايش جنوده ويرعاهم ، ويشارك اطفاله في عبثهم ولعبهم . وهو الى ذلك ذو شجاعة وبطولة فريدتين ، ورجل نزال وطعان لا يضاهى ، وقد شغفه الجهاد في سبيل بلاده فلم تؤخره عنه مسرة او لذة ، ولم يثنه عنه تعب او ملل ، او يهله فيه هائل من الامور . ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له في ذلك فيقول : « اني انما اشعر بالمرض حين اترك ظهر جوادي » . وقال ابن شداد: « ما رأيته استكثر العدو أصلاً ، ولا استعظم امرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، تذكر بين يديه الاقسام كلها ، ويرتب على كل قسم بمقتضاه ، من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع العلم ، وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير ، حتى انحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة الاف ما بين راجل وفارس . »

وقال التاريخ : « لم يكن للعرب قبل موقعة حطين ، شبر واحد من الارض غربي الاردن منذ دخل الفرنجة هذه البلاد واستولوا عليها ، أما بعد صلح الرملة فقد أصبحت كل الأرض ملكهم ، الا رقعة صغيرة عند الساحل من صور الى عكا . وكانت هذه الرقعة

التي استفادها العرب فيما بعد ، هي نتيجة تلك الحروب التي دامت قرنين ، وتجمعت لها اوربا بأسرها ، ومات في سبيلها مئات الالوف من الفرنجة . »

obeikandl.com

مراجع الكتاب

ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

ابن الأثير : الكامل

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر

ابن خلكان : وفيات الاعيان

ابن دحلان : الفتوحات الاسلامية

تاج الدين بن ايوب : كتاب التاريخ

عماد الدين الكاتب : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين

سيد علي الحريري : الاخبار السنية في الحزوب الصليبية

بطرس البستاني: دائرة المعارف

فرح انطون : السلطان صلاح الدين ومملكة اورشليم

جرجي زيدان : صلاح الدين ومكائد الحشاشين

الدكتور احمد بيلي : حياة صلاح الدين الايوبي

الدكتور مصطفى الوكيل : صلاح الدين الايوبي

الدكتور فيليب حتي : العرب

الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي

باول كراوس : طبيب صلاح الدين ، الثقافة ، م ٥ ص٤٩٩و٥٥٣
فيليب حتي : تحفة الشرق لمدنية الغرب ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف .

نقولا زيادة: سوريا في زمن الصليبيين،المقتطف، م ٨٧ص١٦و١٩٣
كرم ملحم كرم: رجل غير وجه التاريخ ، الأديب ، م ٤،ع ١٢
قسطنطين زريق : جندي في جيش صلاح الدين ،المكشوف، ع٨٨
محمود سليمان العايدي: المملكة التهذيبية في القدس،الكلية: م ١٨ ع١
محمد عبد الله عنان: مؤامرة على صلاح الدين، الهلال، م٤٦،ص٢٩٧
المقتبس : سيرة صلاح الدين الايوبي ، م ٨ ، ص ١٨
الكلية : التسلح في الحروب الصليبية ، م ١٧ ، ع ٤ .
المقتطف : صلاح الدين والملك ريكارد ، م ١٠ ، ص ٣٩٣
المقدم خانكاه : معركة حطين ، الشرق العسكري ، م ١ ع ١٠

Michaud : Histoire de Croisades.
Maily : L'esprit des Croisades.
Desobry et Bachelet : Dictionnaire de Géographie et d'Histoire.
André Ribard : La prodigieuse histoire de l'humanité.